
برنامج الدرس الواحد الأول، الدروس ٢٠.



تطريز

الشيخ صالح بن عبدالله بن حمد العصيمي

علىٰ

الوصية الصغرى

تصنيف

شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية

رحمه الله تعالىٰ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله ربِّنا، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛ فهٰذا هو **الدرس العشرون** من دروس برنامج **الدَّرس الواحد الأول**، والكتاب المقروء فيه هو «الوصية الصغرىٰ» لشيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية الحفيد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

ولابد قبل الشروع في إقرائه من ذِكر مقدمتين اثنتين:

المقدِّمة الأولى: **التعريف بالمُصَنِّف**: وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأوَّل: جرّ نَسبه؛ وهو العلّامة بحر العلوم شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام النُّميري الحرَّاني الحنبلي، يُكْنىٰ بأبي العبّاس، ويُعرف بابن تيمية، وكما تقدّم أنّ زيادة الحفيد في لقبه أنسبُ ليتميَّز عن أسلافه من أهل العلم؛ فإنّ جدَّه كان عالمًا، وكذلك كان أبوه -رحمهم الله جميعًا- فيقال: ابن تيميّة الجد، وابن تيميّة الأب، وابن تيمية الحفيد، ويُلقَّب أيضًا بشيخ الإسلام بحيث إذا أَطلق المتأخِّرون من الحنابلة هٰذا اللقب لم يكن مرادًا به إلَّا هو رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.

المقصد الثّاني: تاريخ ولادته؛ وُلد عاشر ربيع الأوّل سنة إحدىٰ وستين وستمائة (٦٦١هـ).

المقصد الثّالث: تاريخ وفاته؛ تُوفي رَحِمَهُ اللهُ في العشرين من ذي القعدة سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة (٧٢٨هـ)، وله من العُمُر سبعٌ وستُّون سنة.

المقدمة الثَّانية: **التَّعريف بالمُصَنَّف**: وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضًا:

المقصد الأول: **تحرير عُنوانه**؛ ذكر هٰذه الرسالة «ابن رُشيق» تلميذ شيخ الإسلام في كتابه الذي جمع فيه أسماء مؤلَّفات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وسماها: «وصيةٌ لأبي القاسم يوسف التُّجيبي السَّبتي»، وذكر قبلها وصية أخرىٰ باسم: «وصيةٌ للتُّجيبي» فلعلها هي، وعُرفت بـ«الوصية الصُّغرىٰ» تمييزًا لها عن «الوصية الكبرىٰ» التي كتبها أبو العباس رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ أتباع الشيخ عدي بن مسافر.

فصار لأبي العباس وصيتان اثنتان:

إحداهما: «الوصية الصغرىٰ»: وهي هٰذه التي كتبها لأبي القاسم.

والأخرىٰ: «الوصية الكبرىٰ»: وهي التي كتبها لأتباع الشيخ عدي بن مسافر من أهل العراق.

المقصد الثاني: **بيان موضوعه**؛ هٰذه الرّسالة هي جواب عن سؤال تضمّن أربعة أمور:

أوّلها: طلب السائل الوصيّة بما يكون فيه صلاح دينه ودنياه.

والأمر الثّاني: رغبتُه في إرشاده إلىٰ كتاب يكون عليه اعتمادُه في علم الحديث، وكذلك غيره من العلوم الشرعية.

والأمر الثَّالث: تنبيهه إلىٰ أفضل الأعمال الصّالحة بعد الواجبات.

والرّابع: بيان أرجح المكاسب.

وقد جاء جوابُ أبي العبّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ متضمِّنًا لهٰذه الأمور الأربعة.

المقصد الثَّالث: توضيح منهجه؛ لا يختلف القول في منهج هٰذه الرسالة عمَّا سبق أن عرفته من منهج أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما اختصَّ به من المعالم الرَّشيدة من كثرة الاستدلال وحسن الاستنباط وسعة الاطلاع، المسلوك في صياغةٍ وثيقة مُحكمة البناء، تميزت بها تصانيفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن تصانيف غيره من أهل العلم من متأخِّري الحنابلة خصوصًا، رحمة الله علىٰ الجميع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُؤَالُ أَبِي الْقَاسِمِ الْمَغْرِبِيِّ:

يَتَفَضَّلُ الشَّيْخُ الإِمَامُ، بَقِيَّةُ السَّلَفِ، وَقُدْوَةُ الْخَلَفِ، أَعْلَمُ مَنْ لَقِيتُ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تيمية بِأَنْ يُوصِيَنِي بِمَا يَكُونُ فِيهِ صَلَاحُ دِينِي وَدُنْيَايَ، وَيُرْشِدَنِي إِلَىٰ كِتَابٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيُنَبِّهَنِي عَلَىٰ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ، وَيُبَيِّنَ لِي أَرْجَحَ الْمَكَاسِبِ. كُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ قَصْدِ الْإِيمَاءِ وَالِاخْتِصَارِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَحْفَظُهُ.

وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمَّا «الْوَصِيَّةُ» فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[النساء:١٣١].

وَوَصَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا لَمَّا بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ؛ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**».

وهٰذا الحديث وهو أحد الأحاديث المشهورة؛ بل هو من جملة الأربعين النَّووية، سائر طرقه ضعيفة لا يثبت منها شيء؛ إلَّا أن من أهل العلم من يرىٰ تقويته بمجموع طرقه، ويَعُدُّه في الحِسان، كأبي عبد الله الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: «**يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ**» وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ، وَرُوِيَ فِيهِ: أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

هٰذا الحديث المروي في السُّنن؛ الصَّواب فيه الإرسال، ولا يثبت عن النبي ﷺ، فقد صنّف أبو الفضل ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جزءًا مفردًا في بيان طرق هٰذا الحديث.

وَأَنَّهُ يُحْشَرُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ - أَيْ بِخُطْوَةٍ.

رُوِي هٰذا عن النَّبيِّ ﷺ من طرقٍ موصولة لا يثبت منها شيء، وأصح ما في الباب مراسيلُ عن جماعة من التابعين.

وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مُبَلِّغًا عَنْهُ دَاعِيًا وَمُفَقِّهًا وَمُفْتِيًا وَحَاكِمًا إِلَىٰ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ إنْ صحت هٰذه النُّسخة؛ فليس في شيء من الأحاديث عن النبيِّ ﷺ تشبيهٌ لمعاذ بإبراهيم، وأظن صواب النسخة: (وكان يُشَبَّهُ بإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ) وقد وقع هٰذا في كلام ابن مسعود من الصحابة -رضوان الله عليهم- كما سيذكره المصنِّف، أما في الأحاديث المرفوعة فلا أعلم شيئًا صحيحًا في ذلك.

وَإِبْرَاهِيمُ إِمَامُ النَّاسِ. وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِإِبْرَاهِيمَ.

فمدحه ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأربع خِصال؛ هي التي مُدح بها إبراهيم:

الخصلة الأولىٰ: أنّه أُمة؛ والأُمَّة: هو القدوة الذي يُؤتم به ويُقتدىٰ.

والخصلة الثانية: أنّه قانتٌ لله؛ والقنوت: اسم جامع للطاعة، وقد روي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**كل قنوت فهو طاعة**» ولا يثبت إسناده؛ لكن المُعَوَّل عليه لسان العرب؛ وفيه أن القنوت اسم جامع للطاعة، ورجَّح هٰذا جماعة من المحققين منهم ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

والخصلة الثالثة: أنّه حنيف؛ و**الحنيف**: **هو المُقْبِل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُعرض عمَّا سواه**؛ فالحنيفية تجمع معنيين اثنين:

أحدهما: الإقبال علىٰ الله بالإخلاص له وحده.

والثّاني: الإعراض عما سواه بالبراءة من كل ما يُعبد من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي مُسْتكِنَّة في كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله).

وأما **الخصلة الرّابعة**: فهو الشهادة له بأنه لم يكن من المشركين؛ بل كان من جملة عباد الله الموحّدين.

ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ وَصَّاهُ هٰذه الْوَصِيَّةَ فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ، وَهِيَ كَـذَلِكَ لِمَـنْ عَقَلَهَـا مَـعَ أَنَّهَـا تَفْسِـيرُ الْوَصِـيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

يعني تفسير الوصية القرآنية الآمرةِ بتقوىٰ الله ﷻ.

أَمَّا بَيَانُ جَمْعِهَا، فَلِأَنَّ العبدَ عَلَيْهِ حَقَّانِ: حَقٌّ لِلَّهِ ﷿. وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ.

ثُمَّ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا، إِمَّا بِتَرْكِ مَأْمُورٍ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**» وَهٰذه كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، وَفِي قَوْلِهِ: «**حَيْثُمَا كُنْتَ**» تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إِلَىٰ التَّقْوَىٰ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**» فَإِنَّ الطَّبِيبَ مَتَىٰ تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ، وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ.

قوله رحمه الله: (وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ) يعني أن الذنب ملازم للآدمية، فكل بني آدم خطَّاء، وقد روي هٰذا في حديث عن النبي ﷺ إلا أن إسناده ضعيف، ويُغني عنه ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذرّ الغِفاري رضي الله عنه فيما رواه النبي ﷺ عن ربِّه أنه قال: «**يا عبادي؛ إنّكم تذنبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا**»؛ فقوله تعالىٰ: «**إنكم تذنبون بالليل والنهار**» دليلٌ علىٰ أنّ الذنب مقارنٌ للآدمية، وليس اللَّوم علىٰ عبد يُذنب، ولكن اللوم علىٰ عبد يُذنب ثم لا يتوب، قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد في «التدمرية»: (من أذنب فندم فتاب فقد أشبه أباه -يعني آدم- ومن أشبه أباه فما ظلم)، انتهىٰ كلامه.

فَالْكَيِّسُ هُوَ الَّذِي لَا يَزَالُ يَأْتِي مِنَ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ. وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ «السَّيِّئَةَ» وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا؛ لَا فِعْلُ الْحَسَنَةِ، فَصَارَ كَقَوْلِهِ فِي بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ: «صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ».

الذَّنوب: هو الدّلو العظيمة المملوءة ماء.

وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ) الحسنة المفعولة تُفعل علىٰ أحد أمرين:

أحدُهما: أن تُفعل ابتداءً، ابتغاء التقرُّب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والثَّاني: أن تُفعل ابتغاءَ تكفيرها لسيِّئة، وما كان من هٰذا الجنس فإنَّ المناسب كما ذكره أهل العلم ومنهم أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في هٰذا الموضع، وحفيدُه بالتلمذة: أبو الفرج ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»= أنَّ تكون الحسنة المفعولة من جنس السيِّئة المفعولة؛ مثاله: من سرق مالًا من إنسان، ثم ندِمَ وتاب، فإنّ الحسنة المناسبة أن يتصدَّق بمال، كي يكون أبلغ في التكفير، وإذا أمكن أن يرد عين المال إلىٰ من سرق منه فلا شك أنه أبلغ؛ لكن إذا تعذّر هٰذا فإنه يتصدق بمثله ليكون أبلغ في محو السيِّئة.

وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ.

وَالثَّانِي: الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ. فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إِجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ الْكَمَالُ.

الثَّالِثُ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُكَفِّرَةُ.

أَمَّا «الْكَفَّارَاتُ الْمُقَدَّرَةُ»: كَمَا يُكَفِّرُ الْمُجَامِعُ فِي رَمَضَانَ، وَالْمُظَاهِرُ، وَالْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ، أَوْ تَارِكُ بَعْضِ وَاجِبَاتِهِ، أَوْ قَاتِلُ الصَّيْدِ بِالْكَفَّارَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ: هَدْيٌ وَعِتْقٌ وَصَدَقَةٌ وَصِيَامٌ.

وَأَمَّا «الْكَفَّارَاتُ الْمُطْلَقَةُ» كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لِعُمَرَ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي: أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، يُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ: بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالْجُمْعَةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا، وَعَمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِنَ السُّنَنِ خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ.

هٰذه الأمور الثلاثة التي ذكرها أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هي من جملة مُزيلات الذُّنوب، وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدةٌ نافعة موجودة في جملة «مجموع الفتاوىٰ»، ذكر فيها عشرة أنواعٍ من مُزيلات الذنوب، ينبغي أن يراجعها العبدُ كي يُكمِّل بها نقص عبوديته، فإنه ما مِنَّا أحدٌ إلا وهو ذو ذنب، والحكيم من تدارك سيئاته بالأعمال التي رتَّبتها الشريعة كي تكون مُزيلة لها.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهٰذا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ، خُصُوصًا فِي هٰذه الْأَزْمِنَةِ؛ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ، قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ، فَكَيْفَ بِغَيْرِ هٰذا؟!

وهٰذا الذي ذكره أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ لا يبعد عن زماننا؛ فإن هٰذا الزمان من أزمنة الفترات التي عظُمت فيها البلية بأحوال الجاهلية، وتسارع النَّاس إلىٰ أبواب الفتن، فينبغي أن يتزوَّد العبد بما ذكره رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ كي يسلُك به طريق النجاة، وهٰذا إذا كان من ينشأ بين أهل علمٍ ودين كأهل هٰذه البلاد؛ قد يتلطَّخ بعدة أشياء كما تراه فيهم، فما الظَّنُّ بغيرهم من أهل الإسلام؟! مما يبيِّن افتقار الناس إلىٰ معرفة دينهم، وأن البلاء لا يندفع عنهم إلا بعلمهم بدينهم، وإذا جهلت الأمة دينها فإنها لا تحوز نصرًا، ولا تحقق رفعةً لها.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»

قوله ﷺ: «سَنَنَ» فيه لُغتان:

إحداهما: بفتح السِّين، ويُقصد بها الطريق.

والآخر: بضمِّها، ويُقصد به جمع «سُنة» ومآل السنة هي الطريق.

(**الْقُذَّةِ**): الرِّيش الذي يكون في مؤخرة السهم.

هٰذا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾[التوبة:٦٩].

هٰذا نوع من العلم، وهو ما جاء من الأحاديث النبوية وتصديقه في القرآن الكريم، وقد صنَّف أهل العلم في عكسه؛ وهو: ما جاء في القرآن وفسَّرته السنة أو صدَّقته.

أما العكس وهو: ما جاء في السنة النبوية ثم صدقه القرآن فإنه لا يوجد من الكتب المصنفة فيه شيء بأيدي الناس.

وذُكر في ترجمة بعض المغاربة أنه جمع كتابًا ذكر فيه الآيات القرآنية التي تفسِّر وتصدق الأحاديث النبوية الواردة في «صحيح مسلم»؛ لأن أهل المغرب تعظم عنايتهم بصحيح مسلم، ذكره «الكتَّاني» في كتابه «فِهرس الفهارس».

وَلِهٰذا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ. وَهٰذا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الدِّينِ مِنْ الْخَاصَّةِ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عيينة؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدِ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ، وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَىٰ قَدِ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الدِّينِ، كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ.

وقول ابن عيينة رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ وغيره من السلف أنهم قالوا: (من ضَلَّ من علمائنا ففيه شبه باليهود، ومن ضلَّ من عُبَّادنا ففيه شبه من النّصارىٰ).

ولهٰذا فإن أدواء هاتين الأُمّتين: الأمة الغضبية والأمة الضّالة، هي مخلوفةٌ في هٰذه الأمة، فحظّ العلماء أدواء القلوب التي كانت عند اليهود، وحظ العُبَّاد أدواء القلوب التي كانت عند النصارىٰ، والنّاجي من أنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هٰذه الأدواء.

ومن تأمّل القرآن الكريم وجد أن ما يذكر في ذم العلماء تكون الخلال فيه خلال اليهود، وما يذكر في ذمّ العباد يكون الخلال فيه خلال النصارىٰ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَكَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَرِيقَ الْأُمَّتَيْنِ: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضَّالِّينَ، مِنَ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَيَرَىٰ أَنْ قَدِ ابْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ.

فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ: الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هٰذه الْوَرَطَاتِ؛ وَهُوَ إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ. وَالْحَسَنَاتُ مَا نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ عَلَىٰ لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْحَسَنَاتُ مَا نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ)إلىٰ آخره، مُراده بـــ(نَدَبَ) المعنىٰ اللُّغوي؛ لا المعنىٰ الذي اصطلح عليه علماء الأصول، وجِماع الحسنة: **أن الحسنة هي: كل ما أُمر به؛ سواء كان الأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب**؛ فعلىٰ هٰذا مثلاً: الصلاة من الحسنات، والصدقة من الحسنات، وبرّ الوالدين من الحسنات.. وأشباه هٰذا.

وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجِبَ الذُّنُوبِ: الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ، وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ: هَمٍّ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ أَذًىٰ، فِي مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ، أَوْ جَسَدٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسَ هٰذا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ.

هٰذا نوعٌ رابعٌ مما تُزال به الذُّنوب ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية هنا عَقِب الثلاث التي تقدّمت؛ وهـو (الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ)؛ والمقصود بـ«المصائب المكفرة»: الأقدار المؤلمة التي تجري علىٰ العبـد؛ حتـىٰ الهم والحَزَن والأذىٰ الذي يُصاب به الإنسان في ماله أو عرضه أو جسده أو غير ذلك، فإنّ هٰذا كلـه ممـا يكفر الله ﷻ به عنه السيئات.

فَلَمَّا قَضَىٰ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ اللهِ: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ، قَالَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ.

وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَك مِنَ: التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَك: فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ. وَبَعْضُ هٰذا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ.

هٰذا الذي ذكره أبو العباس كلام عظيم في حقيقة الخُلق الحسن؛ إذ قال: (**أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك بِالسَّلَامِ**) فليس الخلق الحسن أن تصل من وصلك؛ ولكن الخلق الحسن (**أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَك مِنَ: التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ**) لا أنْ تعطي من أعطاك، (**وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَك**) لا من أكرمك (**فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ**) وهكذا كانت حال كُمَّل عباد الله؛ كالنَّبي ﷺ وصحابته والتابعين، فكم ترىٰ فيهم من كمال الحال – رحمهم الله تعالىٰ– ورفع درجاتهم في عليّين، وإذا تأمّلت سيرة أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وجدت أنَّ من أعظم أسباب رفعته ليست زيادة علمه؛ فلقد كان في زمانه من يُقرن به وهو «تقي الدين السُّبكي» حتىٰ أنهما كانا فرسا رِهان، ولكن شتّان بين حال هٰذا وحال ذاك، فاليوم ومن قبل اليوم كانت الشهرة لأبي العباس ابن تيمية، وأما السُّبكي فلا تكاد تسمع به إلا علىٰ لسان آحاد طلبة العلم، وما الأمر إلا لأن الحال التي كان عليها أبو العباس رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من مسألة الديانة وكمال المراقبة لله عَزَّ وَجَلَّ والاستمساك بالشريعة والدعوة إلىٰ الحق، وحطّ حق النفس لم تكن عند غيره.

ومن جملة ذلك ممّا يُذكر عنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: أن تلاميذه ومنهم ابن القيم دخلوا عليه يومًا يبشِّرونه بموت «ابن الزَّملكاني» أحد أعدائه، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ غاضبًا: تُبشِّروني بموت مسلم؟!! ثم قام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ إلىٰ أولاده فعزَّاهم وقال لهم: (أنا لكم بعده، وأيُّما حاجةٍ تحتاجونها فأنا لكم بها **كفيل**) وهٰذا هو الخلق الحسن الذي ينتفع به العبد في الدُّنيا والآخرة.

وأما التَّصنُّع ووصل مَنْ وصل وإعطاء مَنْ أعطىٰ؛ فهٰذا شيءٌ تستطيعه النفوس جميعًا؛ ولكن الذي لا تستطيعه إلا نفوس كُمّل العباد هو: من يقابل فعل من أساء إليه بالإحسان إليه، وفعل من ظلمه بالعدل معه، وقدح من قدحه بالثناء عليه بما هو فيه من الخير، ولا يصل المرء إلىٰ ذلك إلا بكمال المراقبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعلم أن حق الله عَزَّ وَجَلَّ: هو الحق الذي ينبغي أن يرعاه.

فإذا ظلمك أحد بقول، فلم يأذن لك الشرع أنْ تظلمه بقول؛ ولكن انظر إلىٰ ما أمرك الشرع، فقد يكون متأوّلًا، وقد يكون معذورًا، وقد يكون قاله غضبًا، ونظائر هٰذا مما يعذر به الشرع.

فالتّقي النّقي سليم القلب ينظر إلىٰ أمر الشريعة، ويكون تعظيم الشريعة في قلبه أعظم من الالتفات إلىٰ أحوال الناس، فإنّ الناس وإنْ مدحوك ملء الأرض ما نفعوك، وإن قدحوك ملء الأرض ما ضرُّوك، ولكن الذي ينفعك ويضرك هو: محبة الله ﷻ لك أو بُغضه إياك؛ فالسَّعيد من أحبه الله، والشَّقي من أبغضه الله، ولا يزيدك محبّة الناس ولا ينقصك كراهية الناس؛ ولكن الذي يزيدك هو محبة الله ﷻ لك، ولذلك في حديث سَهْل في «الصَّحيحين» لمَّا قال النبي ﷺ: «**لأُعطينّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» **بات الصحابة ليلتهم يدوكون،** لا ينظرون من هٰذا الذي يحب الله ورسوله، فكلهم ذاك، ولكنهم ينظرون أيُّهم الذي يحبُّه الله ورسوله، نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا وإياكم ممن يحبه الله ورسوله ﷺ.

وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا، هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ. وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)، وَحَقِيقَتُهُ الْمُبَادَرَةُ إِلَىٰ امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ.

حاصل هٰذه الجملة أنَّ الخُلق له شرعًا معنيان اثنان:

المعنىٰ الأول: معنًىٰ عام؛ وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم]؛ قال مجاهد وجماعة من السَّلف: «الخلق العظيم؛ الدين العظيم» فيقع إطلاق الخلق ويراد به الدِّين كله.

والمعنىٰ الثاني: معنًىٰ خاص؛ وهو ما يكون بين العبد وبين غيره من المعاملة، وهو الذي سبق ذكره في كلام أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هٰذا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ، فَهُوَ أَنَّ اسْمَ «تَقْوَىٰ اللهِ» يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَىٰ عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا؛ وَهٰذا يَجْمَعُ: حُقُوقَ اللهِ وَحُقُوقَ الْعِبَادِ.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يَعْنِي بِالتَّقْوَىٰ خَشْيَةَ الْعَذَابِ، الْمُقْتَضِيَةِ لِلِانْكِفَافِ عَنْ الْمَحَارِمِ، جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ، وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ : «قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : «**تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ**». قِيلَ : وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟ قَالَ: الْأَجْوَفَانِ : «الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «الأجوفان: الفم والفرج»، لا أظن أن كلمة «الأجوفان» في سياق الترمذي فتُراجع، وإنما سياق الترمذي فيه: (الفم والفرج).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ كُلَّهُ: تَقْوَىٰ اللهِ، وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَىٰ وَفُرُوعِهَا لَا يَحْتَمِلُهُ هٰذا الْمَوْضِعُ، فَإِنَّهَا الدِّينُ كُلُّهُ.

لَكِنْ يَنْبُوعَ الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ : إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: عِبَادَةً، وَاسْتِعَانَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾[هود:٨٨]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾[العنكبوت:١٧]، بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، انْتِفَاعًا بِهِمْ، أَوْ عَمَلًا لِأَجْلِهِمْ، وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ تَعَالَىٰ وَذَلِكَ بِمُلَازَمَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْ: فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ، وَمَخَافَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ. وَمَنْ أَحْكَمَ هٰذا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ.

(مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ) يعني: ما يُثمِرُه ذلك، إذا كان العبد دائم الصِّلة بربِّه ﷻ؛ متعلقًا به، همَّته ومراده ابتغاء مرضاة الله ﷻ فإنه ينال سعادة الدَّارين، وأمَّا من كانت همّته الدُّنيا فإنه يبقىٰ مُعذَّبًا، ولذلك شتان بين همتين؛ كما وقع في كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «الفوائد»: (هِمَّةٌ تدور حول العرش وهِمَّة تدور حول الحُش)؛ يعني: أنتان الدُّنيا، فينبغي أن يكون مُراد العبد هو ابتغاء القُربة إلىٰ الله ﷻ، وأنْ تكون طِلبة همته تحرِّي ما يوصل إلىٰ مرضاته من الأعمال الموقِفة علىٰ رضىٰ الربِّ ﷻ ومحابه.

وهٰذا الذي ذكره أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ فيما تقدَّم؛ فيه إشارةٌ إلىٰ تفسير التقوىٰ، وإن كان رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أجمل مراعاة للحال، فإنها وصيّة كُتبت علىٰ عجل لرجل كان قدِم فسأله الوصية بما يُصلح دينه ودنياه، فما هو تعريف التقوىٰ؟

اتخاذ العبد وقاية بينه وبين ربه بامتثال خطاب الشَّرع.

قولنا: (**اتخاذ العبد وقاية**) أصح من القول المشهور: (أن يتخذ العبد وقاية بينه وبين عذاب الله) فإن مقصود العبودية التي حقيقتها التقوىٰ ليس مجرد دفع العذاب؛ بل من مقصودها رفعة الدرجات والتزود من كل ما يقرّب إلىٰ الله ﷻ، فالتعبير بما ذكرنا أعم وهو: (اتخاذ العبد وقاية بينه وبين الله) ، ولذلك جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾[النساء:١] كما جاء فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾[التحريم:٦]، فكلّه مما تُطلب الوقاية منه.

وأيضًا قولنا: (**بامتثال خطاب الشرع**) أعم من قول كثيرين: (بفعل أوامره واجتناب نواهيه)؛ لأن فعل الأمر واجتناب النهي هو بعض خطاب الشرع؛ لأن خطاب الشرع نوعان:

النّوع الأوّل: الخطاب الشرعي الخبري المقتضي للتَّصديق، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء]، فهٰذا لا يدخل فيه فعل ولا ترك، وإنّما يدخل فيه التّصديق.

والنوع الثاني: الخطاب الشرعي الطّلبي؛ ويندرج فيه فعل المأمور واجتناب المحظور، فصار هٰذا التعريف جامعًا سالمًا من كل مُعارضة.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ؛ لَكِنْ مِمَّا هُوَ كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ وَأَمْرِهِ: أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ)، ومن أحسن الأجوبة في هٰذا الباب جواب أبي عبد الله أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ لمَّا سأله رجل عن عملين أيُّهما يفعل؟ فقال: «افعل الأنفع لقلبك» فمن الناس من يكون الأنفع لقلبه في حال: قراءة القرآن، وتارة في حالٍ آخر: مواساة المساكين، وتارة في حالٍ ثالث: الجلوس في حلق العلم، وتارة في حالٍ رابع: صلة الأرحام، فيتلمَّس المرء ما يكون نافعًا لقلبه فيعمله، لأن المراد هو إصلاح حال القلب بالأعمال الصالحة.

لَكِنْ مِمَّا هُوَ: كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ وَأَمْرِهِ: أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا، هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنِ الْمُفَرِّدُونَ؟، قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**».

وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو داود عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْر لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ**».

قوله: (**وَالْوَرِقِ**)؛ الورق هو الفضة.

هٰذا الحديث مروي عند الترمذي وابن ماجه وفي إسناده نظر، ومن أهل العلم من صحَّحه؛ لكن في النفس من تصحيحه شيء.

وَالدَّلَائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا، وَخَبَرًا، وَنَظَرًا عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.
وَأَقَلُّ ذَلِكَ أَنْ يُلَازِمَ الْعَبْدُ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ﷺ.

هٰذه الجملة من أجود ما ذُكِرَ في تعيين قَدْرِ ما يكون به العبد من جملة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وأصل هٰذا الجواب لأبي عمرو ابن الصلاح الشهرزوري الشافعي صاحب «معرفة علوم الحديث» فإنه ذكر في «فتاويه»: «أنَّ من أدام المحافظة علىٰ الأذكار المرتبة شرعًا كما وظَّفتها الشريعة، فإنه يدخل في جملة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات» وإلىٰ هٰذا يميل أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كما هو ظاهر كلامه هنا، وتلميذه ابن القيم كما هو ظاهر كلامه في«الوابل الصّيب».

كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجَعِ، وَعِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنَ الْمَنَامِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ.

وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ، مِثْلُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَاللِّبَاسِ، وَالْجِمَاعِ، وَدُخُولِ الْمَنْزِلِ وَالْمَسْجِدِ وَالْخَلَاءِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ، وَعِنْدَ الْمَطَرِ وَالرَّعْدِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمُسَمَّاةُ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

ومن جملتها كتاب أبي عبد الرَّحمٰن النَّسَائِيّ المسمىٰ باسم «عمل اليوم والليلة» وكتاب ابن السُّنِّي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ المسمَّىٰ بـ«عمل اليوم والليلة»، وكتاب أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ المسمَّىٰ بـ«الكلم الطيِّب» وكتاب تلميذه ابن القيم المسمّىٰ بـ«الوابل الصيِّب».

فينبغي أن يحرص العبد علىٰ حفظ هٰذه الأذكار، وينبغي أن يُنشَّأ الناشئة علىٰ حفظ هٰذه الأذكار؛ فإنّها من أنفع الأمور للقلب؛ بحيث يرسخ فيها الإيمان ويزيد اليقين، ومن رأىٰ نشأة النّاس فوجدهم أنهم قد نُشِّئوا علىٰ دوام الأذكار يجد لذلك في نفوسهم أثر، وقد كان بعضُ من مضىٰ من أهل التعبُّد يعتني بتحفيظ الناشئة «صحيح الكلم الطيب» للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وهٰذا أقل ما يكون أن يحفظ الإنسان شيئًا ممَّا عُيِّن من جملة الصِّحاح من كتاب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وإن نُوزع في شيءٍ منه إلا أنه نافع للمرء.

ثُمَّ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا، وَأَفْضَلُهُ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**».

وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: «**سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» أَفْضَلَ مِنْهُ.

ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

وَلِهَٰذا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ أَوْ يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا، فَهَٰذا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ.

وهٰذا الذي ذكره أبو العباس ابن تيمية ﵀ وقع في لسان جماعة من التَّابعين، كما قال عطاء ﵀ تعالىٰ: (مجلسٌ يتعلَّم فيه العبد الحلال من الحرام من ذكر الله ﷻ)، فليس ذِكر الله مقصورًا علىٰ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير كما يتوهَّمه كثيرٌ من الناس؛ بل باب الذِّكر أوسع من ذلك، ولابن القيم ﵀ تعالىٰ كلام جامعٌ مفيد في معنىٰ الذكر ذكره في صدر كتابه «الوابل الصيِّب» فيَحسُن الرجوع إليه.

وَعَلَىٰ ذَلِكَ إذَا تَدَبَّرْت لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِمْ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلَافٍ.

وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَىٰ الْعَبْدِ فَعَلَيْهِ بِالِاسْتِخَارَةِ الْمَشْرُوعَةِ، فَمَا نَدِمَ مَنِ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالَىٰ. وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ وَمِنَ الدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَلَا يَعْجَل فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْت فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي، وَلْيَتَحَرَّ الْأَوْقَاتَ الْفَاضِلَةَ: كَآخِرِ اللَّيْلِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ، وَوَقْتِ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ[١].

وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ: فَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ، وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ؛ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إلَىٰ اللهِ وَيَدْعُوهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ: «**كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي، أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**» وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّىٰ شِسْعَ نَعْلِهِ إذَا انْقَطَعَ، فَإِنَّهُ إنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ**»[٢].

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النساء:٣٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة:١٠] وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمْعَةِ، فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ.

وَلِهَذَا -وَاللهُ أَعْلَم- أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك**» وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك**».

الأمر بقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك**» عند الخروج من كل صلاة فيها تقرير لهذا المعنىٰ؛ أن المرء يتلمَّس فضل الله ﷻ عند كل مرة ينقضي فيها من عبادة الصلاة، وليس مقصورًا علىٰ صلاة الجمعة كما جاء في آيات سورتها، ثم إن هذا الذي أورده رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هو القَدْرُ الذي يثبت عن النبي ﷺ فيما يقول الإنسان إذا دخل المسجد وفيما يقول إذا خرج.

---

(١) قال الشيخ صالح العصيمي حفظه الله: إذا كانت الواو استئنافية فهي مبتدأ (ونَحْوُ ذلك)، وإذا لم تكن الواو استئنافية فتكون معطوفة علىٰ المجرور (كآخر الليل) و (أدبار الصلوات) و (عند الأذان) صار عطفه: (وَنَحْوِ ذلك)، وبلا عطف تكون الواو استئنافية (ونَحْوُ ذلك).

وهل فيها وجه للنصب؟ دائمًا إذا جاءت (ونحو ذلك) فإما أن تكون مبتدأً مرفوعًا، وإما أن تكون منصوبة لفعل محذوف تقديره: وانْحُ أنت نحو ذلك، ويجوز وجه ثالث وهو: الجر؛ عطفًا في هذا الموضع.

(٢) وهذا الحديث، حديث ضعيف لا يثبت عن النبي ﷺ، و(شِسْع النعل): سيور النعل التي تكون بين الأصابع.

والأذكار المنقولة عن النبي ﷺ الزائدة عن هٰذا لا يصح منها شيء كالتسمية أو الصلاة علىٰ النبي ﷺ؛ لا يثبت منها شيء إلا حديثًا آخر وهو: «**اللّٰهُمَّ إني أعوذ بوجهك الكريم، وسلطانك القديم، من الشيطان الرجيم**» فهٰذا إسناده حسن.

وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾[العنكبوت:١٧] وَهٰذا أَمْرٌ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ. فَالِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ وَاللَّجَأُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ، بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ: بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ، وَالسَّعْيُ فِيهِ إِذَا سَعَىٰ: كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ : «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ: شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ: جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

وهو بهٰذا اللفظ ضعيف لا يثبت عن النبي ﷺ، وإنما يثبت بلفظ: «**من كانت الدنيا همَّه فرَّق الله أمره**» إلىٰ آخره.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ الدُّنْيَا؛ وَأَنْتَ إِلَىٰ نَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْتَ بِنَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ مُرَّ عَلَىٰ نَصِيبِك مِنَ الدُّنْيَا فَانْتَظِمْهُ انْتِظَامًا. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات] .

قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلىٰ آخر الآيات، فيه بيان الصلة بين العبادة والرزق، وأن رزق الإنسان علىٰ حسب كمال عبادته؛ فكلما كمَّل الإنسان عبادته كلما كمَّل الله ﷻ رزقه.

فإن قيل: فإننا نرىٰ أناسًا فقراء وهم مَنْ هم في عبادة الله ﷷ. فما الجواب؟

أن نقول: هؤلاء وإن كانوا في الظاهر من أهل العَدَم والحاجة إلا أن ما رزقهم الله ﷷ من الإيمان، ومن حظوظ قلوبهم بالاستغراق في مطالعة أمره ونهيه والرّضا بقدره وقضائه، هو أعظم من الرِّزق الذي يتريّش به كثير من الناس من المراكب والملابس والمفاخر ، وأكثر النّاس أبصارهم لا تتجاوز رزق الأجسام والأشباح.

وأعظم من ذلك رزق القلوب والأرواح؛ فإنّ المرء إذا رزق قلبه بطاعة الله ﷻ والتلذّذ بالإيمان والعلم النّافع والعمل الصالح كان هٰذا هو أعظم الرزق.

فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَىٰ مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ بِنَايَةٍ، أَوْ حِرَاثَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهٰذا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ، وَلَا أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا، لَكِنْ إذَا عَنَّ لِلْإِنْسَانِ جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرِ اللهَ تَعَالَىٰ فِيهَا الِاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ﷺ فَإِنَّ فِيهَا مِنَ الْبَرَكَةِ مَا لَا يُحَاطُ بِهِ. ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ، فَلَا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ؛ إلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ.

ما مراده رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ من قوله: (الاستخارة الشرعية)؟ وقد سبقت هٰذه العبارة، ما هي الاستخارة الشرعية؟ وهو أن يركع ركعتين ثم يأتي بالذِّكر الوارد عن النبي ﷺ: (**اللّٰهمَّ إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك...**) إلىٰ آخر ما ورد عن النبي ﷺ.

وتقدم ذكر ذلك عند إقراء كتاب: «تيسير العبادات» لأبي العباس ابن تيمية أن الصحيح أن هٰذا الذكر يؤتي به بعد السّلام، لماذا؟

لأنّ المصلي لا يُسمىٰ قد صلىٰ ركعتين حتىٰ يختمها بالسلام، لقول النبي ﷺ: «**وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**»، فلو أن إنسانًا صلىٰ ركعتين ثم لمَّا بلغ التشهد قام وخرج، هل يُقال: صلىٰ ركعتين؟ لا، فلا يكون مصليًا ركعتين حتىٰ يختمها بالسلام، ولأجل هٰذا قيل: إنّ الصّحيح هو أن الذكر؛ الدعاء بعد السلام.

وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ: فَهٰذا بَابٌ وَاسِعٌ، وَهُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ، فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنَ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ، وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ.

لَكِنْ جِمَاعُ الْخَيْرِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّىٰ عِلْمًا، وَمَا سِوَاهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا، فَلَا يَكُونُ نَافِعًا، وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ. وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ؛ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ.

يعني أنَّ العلوم الخارجة عن الكتاب والسنة لا تخلو عن حالين:

الحال الأولىٰ: أن تكون علومًا نافعة؛ فإذا كانت علومًا نافعة فإن ما في القرآن والسنة أنفع منه.

والحال الثانية: أن تكون تلك العلوم ليست من جملة العلوم النافعة، فهٰذه لا يُلتفت إليها ولا يُؤبَهُ بها.

وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَسَائِر كَلَامِهِ.

فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ: أَنَّ هٰذا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ؛ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَا مَعَ النَّاسِ إذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ.

وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

ولذلك صنف أهل العلم كتب الحديث المرتبة علىٰ أبواب الديانة، فتجد أنهم صنفوا في الاعتقاد كتبًا، في كل باب منها حديث شريف يُبنىٰ عليه الباب، كما فعل الهروي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتابه «الأربعين في دلائل التوحيد» فإنه بوّب أبوابًا في الاعتقاد ذكر تحت كل باب حديثًا شريفًا عن النبي ﷺ.

وفي الأحكام صنف أهل العلم -رحمهم الله تعالىٰ- فتجدهم تحت كل باب ذكروا حديثًا أو أكثر عن النبي ﷺ، كما فعل الحافظ عبد الغني المقدسي في «العمدة» وتبعه أبو الفضل ابن حجر الحافظ في كتابه «بلوغ المرام» وفي أبواب الآداب والرقائق تجد النووي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ قد جمع «رياض الصالحين» وذكر في أبواب الأدب والرقائق ما هو أصلٌ من الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ ، فينبغي للطالب أن يحرص علىٰ حفظ المأثور عن النبي ﷺ ممّا هو عُمَد الأبواب، فإنّ الأحاديث النبوية منها جملة تعد عُمَد الباب؛ كحديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صفة حجّة النبي ﷺ الطويل فإنّه عمدة في باب الحج، وكحديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الزّكاة فإنه عُمدة فيها، وكحديث وائل بن حُجْر في الصلاة فإنه عمدة فيها، وهَلُمَّ جرًّا.

وَإِذَا اشْتبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ، فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: «يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ، إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ».

يعني أن المفزع الأعظم الذي ينبغي التعويل عليه إذا اشتبه علىٰ العبد شيء من الدين؛ هو سؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهداية، فلذلك كان النبيُّ ﷺ يُديم ذلك فيسأل ربه كلَّ ليلة في صلاة الليل أن يهديه إلىٰ الصراط المستقيم فيما اختُلف فيه، وأكثرُ المشتغلين بالعلم محجوبون عن هٰذا؛ فإنّهم إذا اشتبه عليهم شيء من العلم هرعوا يركضون إلىٰ الرُّجوع إلىٰ المصادر المطولة، فهم يلتمسون في كلام فلان من العلماء شيئًا يُزيل الإشكال، وفي كلام فلان من العلماء ما يُزيل الإشكال، وينسَون أن دفع الإشكال كله بيد المتعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فينبغي أن يُوطِّن المرء نفسه علىٰ سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك كان أبو العباس ابن تيميّة جامع هٰذه الرِّسالة إذا استغلق عليه شيءٌ من العلم ربما استغفر الله ألف استغفارة، وكان يقول: «اللّٰهمَّ يا معلِّم آدم وإبراهيم ومفهِّم سليمان علِّمني وفهمني».

فسؤال الله عَزَّ وَجَلَّ من أعظم الأسباب التي يُنال بها العلم، وكثيرٌ من الطَّلبة يعوِّل علىٰ قوة حفظه وجودة ذهنه وينسىٰ مدَدَ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يكاد يسأل ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَّوفيق فيما يَشْرع فيه من العلم، انظر هٰذا في نفسك عندما تحضر مثل هٰذه الدُّروس!!

هل مَرَّ في خاطرك أنك تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ النَّفع بها؟!

أو مرَّ في خاطرك أنَّك تبتغي عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القُربة بها؟

أكثر النَّاس محجوبون عن هٰذه الحقائق، ولهٰذا؛ لماذا قلَّ حظُّ الناس من العلم؟ لأنه قلَّ حظُّهم من مقصود العلم، فصار همّ كثير من الناس التكثُّر بهٰذه العلوم، والتسابق إلىٰ أن يُقال: فلان يحفظ كذا وكذا، أو فلان يعرف كذا وكذا، أو فلان من تلاميذ فلان وفلان، ويغيب عنهم ملاحظة أنَّ المقصود الأعظم من العلم: أن يُقرِّبك إلىٰ الله، وأن يُعرِّفك بربِّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يهديك صراطَه المُستقيم، وإذا كان هم طالب العلم دائرًا مع هٰذه المقاصد العُظمىٰ فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يفتح له أبواب الفهم، وإذا كان طالبُ العلم

محجوبًا بهٰذه الحُجب الكثيفة التي ذكرتُ بعضها؛ فإنّه يتعب ويشقىٰ ويبكِّر ويحضر ولكنه لا يكون له من العلم إلا الحظُّ اليسير، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إنما يحفظ الرَّجل علىٰ قدر نيّته) وقال أبو عبد الله الرُوذَباري: (العلم يورث العمل، والعمل يورث الإخلاص، والإخلاص يورث الفهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ)

فيتفطَّن الإنسان إلىٰ هٰذه الأمور أكثر من تفطنه:

إلىٰ ماذا يحفظ؟!

وإلىٰ ماذا يقرأ علىٰ شيخه؟!

وعند مَن مِن الشيوخ يحضر، عند شيخ مشارٍ له كي يكون قريبًا منه فيُعرف به، فيُشار، يُقال: هٰذا من تلاميذ فلان بن فلان؟!

لا يزيدُك شيئًا، إنما يزيدك مددُ ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

واعتبر هٰذا في أحوال من مضىٰ تجد صدق ما قلته لك، تجد صدق ما ذكرته لك، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (كلام المتقدِّمين قليل؛ كثير البركة، وكلام المتأخّرين كثير؛ قليل البركة)؛ فتجد أن طالب العلم يقرأ في بعض الكتب المصنّفة التي كتبها المتأخرون كي يتفقه في دينه والكلام كثير؛ لكن البركة قليلة، وتجد أن كلام المتقدمين -رحمهم الله تعالىٰ- قليل ولكن بركته ونفعه كثير، وأيُّ شيءٍ أكثر بركة وأعظم بركة من كلام الله وكلام الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

لذلك إذا صحّت نية طالب العلم وكان أعظم شُغله؛ الشغل في الفكر في كلام الله وكلام الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصلت له المنازلُ العُليا في الدنيا والآخرة، وليس مرادنا بالمنازل العليا مدح الناس؛ ولا نيل المناصب ولا أن يكون لك رسمٌ وهيئة لا تكون لغيرك، وإنما المراتب العليا أن تكون ممَّن عرف الله حقَّ معرفته، ولذلك مَنْ عرَف الله لم يضرّه أن يجهل غيره، ومن جهِل الله لم ينفعه أن يعرف غيره، ومن وجد الله ماذا فقد؟! ومن فقد الله ماذا وجد؟!

إذا كان الأمر تعويله علىٰ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حصلت له الكفاية التامة والرعاية العامّة، وإذا كان تعويله علىٰ أسباب القوّة؛ كقوة حفظه؛ وجودة فهمه؛ ومن يحضر عنده من المشايخ، وما يقتني من الكتب وما يطالع من التصانيف فإنها لا تزيده شيئًا، وسيأتي من كلام أبي العباس ما يشير إلىٰ بعض ما ذكرت.

وَأَمَّا وَصْفُ «الْكُتُبِ وَالْمُصَنِّفِينَ»، فَقَدْ سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ.

وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الْمُبَوَّبَةِ: كِتَابٌ أَنْفَع مِنْ «صَحِيح مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ» لَكِنْ هُوَ وَحْدَهُ لَا يَقُومُ بِأُصُولِ الْعِلْمِ، وَلَا يَقُومُ بِتَمَامِ الْمَقْصُودِ لِلْمُتَبَحِّرِ فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ، إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحَادِيث أُخَرَ.

وَكَلَامُ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ. وَقَدْ أَوْعَبَتْ الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إِيعَابًا [١].

فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا.

أعاد الأمر إلىٰ تنوير الله لقلب العبد، فإذا نوَّر الله ﷻ قلب عبده هداه بما بلغه من العلم؛ وفتق لسانه بأنواع الفهم، وإذا لم يجعل اللهُ له نورًا فماله من نور، وإنّما تزيده كثرة الكتب حيرة وضلالًا، وتأمَّل حال الرّجل الذي كان مشهوراً بالعلم في بلاد «القصيم» ثم غرَّته قِواه وأُعجب بحفظه وقوة فهمه كما يلمسه الإنسان من ثنائه علىٰ نفسه في كتبه الموجودة بيد الناس، حتىٰ انقلب علىٰ عقبه وانخلع من الإسلام بالكلية، فلم تنفعه كتبه ولا تصانيفه ولا ذكاؤه ولا فهمه؛ حتىٰ قيل: إنه كان يحفظ «صحيح البخاري»! وأن أكثر كتاب كان يصطحبه معه: هو «صحيح البخاري»! لكن لما سرىٰ إلىٰ قلبه عِلل من العلل العظيمة التي تُضر بصاحبها؛ كالكبر والحسد ورؤية النفس؛ أظلم قلبُه بها، فلم يجعل الله له نورًا فانقلب علىٰ عقبيه وارتدَّ عن الدِّين بالكلية، وهٰذا يوجب علىٰ طالب العلم -كما ذكرت سابقًا- أن يُكثر سؤال الله ﷻ الهداية والتوفيق وأن ينوِّر له قلبه.

نسأل الله ﷻ أن ينوِّر قلوبنا وقلوبكم بالإيمان.

---

(١) يقول الشيخ صالح العصيمي (حفظه الله): اسمع بقلب حاضر قوله ﵀: (وَقَدْ أَوْعَبَتْ الْأُمَّةُ) وما بعده.

فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي لَبِيدٍ[1] الْأَنْصَارِيِّ: «أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟».

هؤلاء هم اليهود والنصارىٰ بأيديهم كتبهم؛ لكنها لم تنفعهم شيئًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يجعل لهم نورًا، وهكذا؛ لا يفتخر الإنسان بأن عنده مكتبة كبيرة، فما تُغني عنك هٰذه المكتبة إذا لم يجعل الله لك نورًا؟! وإذا تأمَّلت كثيرًا من أحوال أهل العلم الذين بلغوا الغاية لا تجد عندهم إلا كتبًا قليلة؛ لكن قلوبهم منوّرة، وقد أخذوا العلم بأصوله؛ فزادهم الله عَزَّوَجَلَّ علمًا؛ وفتق علىٰ ألسنتهم فهمًا، فإنّك تسمع من أحدهم كلامًا ثم تجده في كتاب، وأنت تقطع بأن هٰذا الكتاب ليس من جُملة مكتبة الشيخ لأنك بها عالم، وما حصل بينهما من الاتّفاق؛ لأن المُعطي واحد وهو الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلما بلغ في قلوبهم الهدىٰ والنور أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ بِقَدْر واحدٍ.

---

(١) يقول الشيخ صالح العصيمي (حفظه الله): كما قال النبي ﷺ لابن لَبيد؛ زياد بن لَبيد.

فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا؟ وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَوَاتُهُ عَلَىٰ أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ.

وبهٰذا كَمُل إقراء الكتاب العشرين، وبه بلغ القَدْر من الكتب الثُلثين بحمد لله ﷻ، ونسأله المزيد من فضله.